

تفسير ابن كثير

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ^جهُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ^جمِلَّةَ
أَيِّكُمْ إِبْرَاهِيمَ ^جهُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ
وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ^جفَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ^ص
فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ

وقوله : (وجاهدوا في الله حق جهاده) أي : بأموالكم وألستكم وأنفسكم ، كما قال
تعالى : (اتقوا الله حق تقاته) [آل عمران : 102] . وقوله : (هو اجتباكم) أي : يا
هذه الأمة ، الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم ، وفضلكم وشرفكم وخصكم
بأكرم رسول ، وأكمل شرع . (وما جعل عليكم في الدين من حرج) أي : ما كلفكم
ما لا تطيقون ، وما ألزمكم بشيء فشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجا ومخرجا ، فالصلاة
التي هي أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين تجب في الحضر أربعا وفي السفر تقصر إلى
ثنتين ، وفي الخوف يصلحها بعض الأئمة ركعة ، كما ورد به الحديث ، وتصلي رجالا
وركبانا ، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها . وكذا في النافلة في السفر إلى القبلة وغيرها ،

والقيام فيها يسقط بعذر المرض ، فيصليها المريض جالسا ، فإن لم يستطع فعلى جنبه ، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات ، في سائر الفرائض والواجبات; ولهذا قال ، عليه السلام : " بعثت بالحنيفية السمحة " وقال لمعاذ وأبي موسى ، حين بعثهما أميرين إلى اليمن : " بشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا " . والأحاديث في هذا كثيرة; ولهذا قال ابن عباس في قوله : (وما جعل عليكم في الدين من حرج) يعني : من ضيق . وقوله : (ملة أبيكم إبراهيم) : قال ابن جرير : نصب على تقدير : (وما جعل عليكم في الدين من حرج) أي : من ضيق ، بل وسعه عليكم كملة أبيكم إبراهيم . [قال : ويحتمل أنه منصوب على تقدير : الزموا ملة أبيكم إبراهيم] . قلت : وهذا المعنى في هذه الآية كقوله : (قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا) الآية [الأنعام : 161] . وقوله : (هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا) قال الإمام عبد الله بن المبارك ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن ابن عباس في قوله : (هو سماكم المسلمين من قبل) قال : الله عز وجل . وكذا قال مجاهد ، وعطاء ، والضحاك ، والسدي ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (هو سماكم المسلمين من قبل) يعني :

إبراهيم ، وذلك لقوله : (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) [البقرة :

128] . قال ابن جرير : وهذا لا وجه له ; لأنه من المعلوم أن إبراهيم لم يسم هذه الأمة

في القرآن مسلمين ، وقد قال الله تعالى : (هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا) قال

مجاهد : الله سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة وفي الذكر ، (وفي هذا)

يعني : القرآن . وكذا قال غيره . قلت : وهذا هو الصواب ; لأنه تعالى قال : (هو اجتباكم

وما جعل عليكم في الدين من حرج) ، ثم حثهم وأغراهم على ما جاء به الرسول ،

صلوات الله وسلامه عليه ، بأنه ملة أبيهم إبراهيم الخليل ، ثم ذكر منته تعالى على هذه

الأمة بما نوه به من ذكرها والثناء عليها في سالف الدهر وقديم الزمان ، في كتب الأنبياء

، يتلى على الأحبار والرهبان ، فقال : (هو سماكم المسلمين من قبل) أي : من قبل

هذا القرآن (وفي هذا) ، وقد قال النسائي عند تفسير هذه الآية : أنبأنا هشام بن عمار ،

حدثنا محمد بن شعيب ، أنبأنا معاوية بن سلام أن أخاه زيد بن سلام أخبره ، عن أبي

سلام أنه أخبره قال : أخبرني الحارث الأشعري ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال : " من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثي جهنم " . قال رجل : يا رسول الله ، وإن

صام وصلى؟ قال : " نعم ، وإن صام وصلى ، فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله " . وقد قدمنا هذا الحديث بطوله عند تفسير قوله : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) من سورة البقرة [الآية : 21] ; ولهذا قال : (ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس) أي : إنما جعلناكم هكذا أمة وسطا عدولا خيارا ، مشهودا بعدالتكم عند جميع الأمم ، لتكونوا يوم القيامة (شهداء على الناس) لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها; فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة ، في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم ، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك . وقد تقدم الكلام على هذا عند قوله : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) [البقرة : 143] ، وذكرنا حديث نوح وأمه بما أغنى عن إعادته . وقوله : (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) أي : قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها ، وأدوا حق الله عليكم في أداء ما افترض ، وطاعة ما أوجب ، وترك ما حرم . ومن أهم ذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وهو الإحسان إلى خلق الله ، بما أوجب ، للفقير على الغني ، من إخراج جزء نزر من ماله

في السنة للضعفاء والمحاييج ، كما تقدم بيانه وتفصيله في آية الزكاة من سورة " التوبة " وقوله : (واعتصموا بالله) أي : اعتضدوا بالله ، واستعينوا به ، وتوكلوا عليه ، وتأيدوا به ، (هو مولاكم) أي : حافظكم وناصركم ومظفركم على أعدائكم ، (فنعم المولى ونعم النصير) يعني : [نعم] الولي ونعم الناصر من الأعداء . قال وهيب بن الورد : يقول الله تعالى : ابن آدم ، اذكرني إذا غضبت أذكرك إذا غضبت ، فلا أمحقك فيمن أمحق ، وإذا ظلمت فاصبر ، وارض بنصرتي ، فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك . رواه ابن أبي حاتم . والله تعالى أعلم وله الحمد والمنة ، والثناء الحسن والنعمة ، وأسأله التوفيق والعصمة ، في سائر الأفعال والأقوال . هذا آخر تفسير سورة " الحج " ، صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وشرف وكرم ، ورضي الله تعالى عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .